بين الآثار

أ. د. نقولا زيادة
الجامعة الأميركية في بيروت

(١)

بدأ اهتمامي بالتاريخ لما عهد إلي بتدريس مادته في مدرسة عكا الثانوية سنة ١٩٢٥. وكانت الفترة المقررة هي التاريخ القديم. كان الكتاب المعروف يومها لدراسة هذه الفترة هو كتاب وصفه جيمز برستد الأميركي، أستاذ التاريخ القديم في جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة واسمه «الأزمنة القديمة» (ولم يكن قد ترجم إلى العربية يومها. فكنت أعد للطلاب مذكرات مختصرة منه، إذ لم يكن لدينا كتب مدرسية، وأتعلم الموضوع مع طلابي).

وأدركت من أول الأمر أنه لابد للإطلاع على شيء من علم الآثار كي يكون عملي تاماً بقدر ما أستطيع. لذلك عمدت إلى ما وصلت إليه يدي من معلومات. على أنني تيقنت من أنه لابد من التعرف على ما اكتشف من المواقع الأثرية بالذات كي تكون معرفتي أوثق.

وكان المكان الأول الذي زرته، مصادفة، هو جبيل سنة ١٩٢٥. كان الأستاذ مونته قد بدأ العمل هناك في السنة السابقة. وقد سر أن جاءه اثنان (كان رفيق الرحلة يومها درويش المقدادي، الذي كان أحد أساتذة دار المعلمين بالقدس لما كنت طالباً فيها بين عامي ١٩٢١ - ١٩٢٤). سر مونته بزيارتنا ورافقنا بنفسه يبين لنا ما قد تم الكشف عنه من آثار المدينة، وكان بعد قليلاً، ويحدثنا عن تاريخ المدينة بحماسة العالم. ولعلّ هذا كان مما حفزني على الاستمرار في هذه الناحية من الدرس. فزرت يومها أيضاً صيدا التي كان قد قام دينان ببعض العمل الأثري فيها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

كان مدير دار المعلمين في القدس، الدكتور خليل طومح، قد قادنا في زيارات دقيقة، للتعرف على مدينة القدس التاريخية وآثارها الغنية الحية - كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وسواها. وكان إن أخذنا يوماً للاطلاع على حفريات أثرية كانت بعثة بريطانية تقوم بها شمالي المدينة لما سمي يومها «حفريات السور الثالث» القديم. لكن هذه لم تثر انتباهي كثيراً وقتذاك. لذلك اغتنمت أول فرصة زرت فيها القدس فذهبت إلى المكان واهتممت بالتفاصيل. وكان القس همند، رئيس كلية الشباب بالقدس، مهتماً بهذه الحفريات الأثرية فزرته وحصلت منه على معلومات وزودني بمقال كان قد كتبه حول الموضوع.

كانت بعثة أثرية من معهد الدراسات القديمة في جامعة شيكاغو تقوم بأعمال حفر واسعة النطاق في مَجدّو (تل المتسلم) الواقعة في منصف الطريق بين حيفا وجنين. لذلك اعتزمت زيارة المكان. ويسر لي الأمر أن أخي كان يعمل في مؤسسة حكومية كان مركزها قرية تل المتسلم. فذهبت إلى المكان. قضيت يومين أزور الأماكن المكتشفة بدقة وعناية. وقد أعطاني /الدكتور ستابلز، أحد القائمين

بالعمل هناك، الكثير من وقته وشرح الأمور بشكل مفصل.
وتعود أهمية مجدو إلى أنهما كانت قد حصلت فيها معركة بين الفرعون المصري تحطميس الثالث وأمراء البلاد السورية الذين تجمعوا في المنطقة لدفع الأذى عن بلادهم سنة ١٤٧٥ ق.م. فضلاً عن ذلك فقد أقيمت فيها مبان مهمة في القرن العاشر قبل الميلاد - منها قصور واسطبلات ضخمة بسبب موقعها الاستراتيجي الحصين. لكن مع كل ما كانت لها من حصانة فإن تحطميس فاجأ الأمراء المجتمعين من طريق لم يحسبوا له حساباً، وانتصر عليهم.

بعد الاطلاع على الآثار طلبت من الدكتور ستايلز أن يعطيني نسخة من التقرير الذي أعده (وكان قد حفر هناك أربعة مواسم أو خمسة) فقال لي: عندي من الجزء الأول نسختان، أعيرك واحدة. فإذا أعدتها إلي بعثت إليك بالنسخة الوحيدة التي عندي من الجزء الثاني. وقد حفظت درساً ثميناً. فأعدت إليه النسخة التي أعارني إياها. ولذلك بعث إلي بنسخته الوحيدة من الجزء الثاني التي أعدتها إليه لما فرغت منها.

ثم سرت من مجدو إلى الساحل عبر وادي عارة (نحو ثلاث ساعات) في الطريق الذي عبره الفرعون المصري. بعد هذه الدراسة الميدانية كتبت مقالة عن «معركة مجدو» (نشرت في مجلة المقتطف ١٩٣٠).

وكانت بعثة من جامعة بنسلفانيا الاميركية تقوم بأعمال حفر، على النحو نفسه، في بيسان (يكينوبوليس) في شمال غور الأردن. ومع أن زيارتي للمكان لم تكن بالتفصيل نفسه الذي تم لي في مجدو، فقد حصلت على تقارير مقتضبة من العاملين هناك، وألقيت عن ذلك محاضرة في ناد أدبي كان في حيفا.

قمت خلال عملي في عكا، الذي دام عشر سنوات، بزيارة أماكن كان بعض العلماء من الآثار قد حفروا فيها في القرن السابق، لكن الحفر توقف مثل عاي، قرب رام الله، وتل النصبة وأريحا (كان غارستنغ قد حفر هناك في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين)، لكن البحث الأثري توقف يومها. وزرت حفريات سبطية (قرب نابلس) الغنية بالآثار اليونانية والرومانية.

(٢)

لكن الذي أثلج صدري وكان له في حياتي العلمية (تاريخنا طبعاً) هو أربعة أيام قضيتها في شتاء سنة ١٩٣٤ في مكان كان الحفر فيه قائماً، وشاركت في الحفر عملياً.

كان السير فلندرز بتري يقوم يومها بالكشف والحفر في تل العجول (إلى الجنوب من غزة). كتبت إليه رسالة قلت فيها إنني أعلم التاريخ القديم في مدرسة عكا الثانوية وقد زرت مجدو وبيسان حيث تقوم أعمال الحفر. لكنني أود أن أقضي أربعة أيام في ضيافة بعثته على أن أقوم بعمل مثل البقية، لأنني أردت أن أتعرف إلى الأسلوب الذي يتم به الأمر عملياً. أجابني مرحباً. ذهبت وقضيت الأيام الأربعة. كنت أحمل القفة التي تحوي ما يعثر عليه من اللقى - قطع خزف وبقايا أسرجة للإنارة، وأساور برونزية أو نحاسية وحبات من عقد من الخزف الملون. وكنا نضع هذه الأشياء في صف إلى أن يأتي الرجل الكبير ومساعداه. فيتم الفحص والترتيب، وتوضع زجاجات من الورق المقوى على اللقى المختلفة مع ترميم وتاريخ ووصف مقتضب.

وسمح لي أن أحمل فأساً صغيرة وأن أسير إلى جانبه في الأماكن العميقة التي وصل إليها (نحو أربعة أو خمسة أمتار) أحاول الحفر مع مراعاة الدقة والانتباه كي لا أكسر شيئاً. فإذا وقعت على شيء، كان يخرج من جيبه فرشاة مصنوعة من الكاوتشوك ليزيل بها التراب عما عثرنا عليه. وقد قال لي أول مرة فعل ذلك أن العادة كانت أن تستعمل فرشاة أسنانها معدنية. لكن هذه كانت تحدث أحياناً أخداشاً ولو بسيطة، وعندها تضيع على الآثاري أمور كثيرة قد تنشأ عن الخدش. وأنه هو صاحب فكرة «الفرشاة المطاطية».

أما عندما كنا نصل إلى جزء من جدار، فكان يجب أن نحرص على أن لا يسقط حجر، مهما صغر حجمه، من مكانه قبل أن يرصد المكان وتقاس أبعاده ويعين مكانه (إذا كان لابد من نقله).

في المساء كان يجلس مع مساعدَيْه الفنيين يتحدثان عن عمل اليوم، ويتم الجميع الوصف والترتيب بالنسبة إلى ما كان قد عثر عليه، أو فيما كان من المحتمل العثور عليه في المستقبل.

بتري كان أحد كبار علماء الآثار يومها. كان قد عمل سنوات طويلة في مصر. وهو أول من قال بأن الفخار هو أصدق دلالة على الأبعاد الزمنية من جميع اللقى لأنه قد يتكسر لكنه لايتبدل ولاينحل مثل الأشياء المعدنية أو الخشبية. وقد قبلت نظريته يومها، وأصبح الفخار، بأنواعه المختلفة، الأساس الذي يعتبر في تعيين زمن موقع معين.

من أطرف ما حدث لي في صباح اليوم التالي لوصولي أنني سألت أحد المساعدين فيما إذا كان لديه مرآة كي استعملها في حلاقة ذقني. سمعني بتري وضحك ثم قال في هذا المكان لاتوجد مرآة للحلاقة، إذ كان ذلك لايلزمنا هنا، وأشار إلى لحيته الكثة. وكانت ابنته مارّة قربنا، وهي طالبة تدرس اللغة والآداب الإيطالية في إيطاليا، قد جاءت لزيارة أبيها وكانت تعمل معنا تماماً مثل أي من العمال، فالتفت إليها وقال هذا الشاب يريد مرآة ليحلق ذقنه، أريه المرآة التي تستعملينها، فجاءت بسكين عريضة لامعة وقالت هذه مرآتي. وعندها ضحك بتري وقال أرح وجهك بضعة أيام من الحلاقة، فالأمر لن يفيدك كثيراً. وهكذا كان.

وكان مما أثّر في نفسي أن هذا العالم الكبير، وكان يقارب الثمانين سنة يومها، لم ينهر أحداً من العمال العاديين في تلك الأيام الأربعة. وما أظنه تصنع ذلك. كان يكثر من طلب العناية منهم في حمل الأشياء ونقلها مهما كانت. كان شعاره: الباحث عن الآثار لايستطيع أن يضيع أو يكسر شيئاً مهما كان صغيراً. فالمدنية نشأت مع الأشياء الكثيرة كالأسوار والقلاع والقصور والأهرام كما كان للأشياء الصغيرة التي قد تبدو تافهة دور في تطوير المدينة ونشوئها.

كانت الأيام الأربعة درساً لي أتذكره حتى اليوم وقد مرت عليه أكثر من ستة عقود.

(٣)

هذه التجارب التي مرت عليّ في مجدو وبيسان وتل العجول، وأنا لست من طلاب الآثار الذين يتعين عليهم القيام بذلك، كانت دروساً مهمة. لذلك فقد ظللت في حياتي عندما أزور بلداً، خاصة في البلاد العربية، أحاول أن أتعرف على الآثار فيه. ومن الخطأ أن يكتفي المرء، حتى المختص بالتاريخ العربي الإسلامي، أن يكتفي بزيارة الآثار المتعلقة بالفترة التي يختص بها. إن دراسة الآثار القديمة، مثل دراسة التاريخ القديم، تمكن هذا «المتخصص» بأن يكون فهمه لموضوعه وفترته أعمق وأوسع وأدق.

ولست أنوي أن أزعج القارئ برواية زياراتي التاريخية والأثرية. فأنا لاأؤرخ لها. لكنني أود أن أشير هنا إلى نماذج من أماكن زرتها وشاهدت آثاراً رومانية أعانتني في فهم أمور تتعلق بالتاريخ الإسلامي. وسأكتفي بنموذجين. الأول من بلاد الشام. فقد رأيت بقايا من الطرق الرومانية المبسطة في شمال البلاد على موازاة الطريق الحديث بين انطاكية وحلب (١٩٥٢) وبقايا منها في جهات فلسطينية. وقد يخطر للبعض أن هذه تعود إلى الرومان، ولم تبلط الطرق على وجه العموم بعد أيامهم. ولكنني لما درست طرق التجارة الداخلية في أيام الدولة المملوكية الأولى، كانت فائدتي من درس الطرق الرومانية كبيرة. إذ أن التاجر لم يبدل طريقه (أي اتجاه السير) بين الفترتين. وحتى لما جاء القطار ولحقت به السيارة كان ثمة تلازم، قد لايكون تاماً بين الدربين! ومثل ذلك شهدته في مدينة وليلي (القريبة من فاس) في المغرب، وهي من أخوات بعلبك، فآثار الطرق الرومانية المبلطة تحاذي طرق القوافل التي كانت تقطعها الإبل حاملة التجارة والحجاج من تلك المنطقة عبر الشمال الأفريقي إلى مصر.

أما المثل الآخر فهو العلاقة العضوية تقريباً بين الهيكل المصري القديم والهيكل اليوناني والروماني في الشرق والكنيسة (البازيليكا) الشرقية، من حيث الشكل العام والتقسيم الداخلي الثلاثي.

وقد أتيح لي أن أزور أصقاع العالم العربي من مشرقه إلى مغربه وأن أزور الهند وباكستان وأواسط آسيا. وقد

كانت زيارات طويلة أحياناً. كما أتيح لي أن أزور الأماكن الأثرية زيارات علمية لا سياحية من تارودنت إلى مراكش وفاس وطنجة وغرناطة وطليطلة (باعتبارها من بلاد العرب وحضارتهم تاريخياً) والجزائر (لا العاصمة فحسب) وتونس وطرابلس والقاهرة (وطيبة - الأقصر) وبلاد الشام (كلها) وبابل ونينوى وقطب منار في دلهي وآثار بخارى وسمرقند وخيوه. لكنني لم أكن ولا مرة زائراً سياحياً فقط.

أنا أعرف أنه لن يتاح للكثيرين مثل هذه الفرص للإطلاع على الآثار المنتشرة هنا وهناك وهنالك. فلن يتمكن كل واحد من زيارة - ودرس في بعض الحالات - لثلاثة وثمانين مسجداً في القاهرة وحدها لكنني أرجو من زملائي الذين يدرسون التاريخ الإسلامي ويبحثون فيه - سياسة وعمراناً وحضارة على أوسع نحو - أن لايكتفوا عندما تتاح لهم الفرصة بالزيارة فقط أولاً وبزيارة الآثار الإسلامية فقط ثانياً.